

من معالم التوحيد-412-1.0

من معالم التوحيد

عبدالرازق بن عبدالمحسن البدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ التَّوْحِيدَ هو أَوَّلُ الدِّينِ وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أَوَّلُ دعوة الرُّسُلِ وآخرها، وهو معنى قول لا إله إلا الله، لأجله خُلِقَتِ الخَلِيقَةُ وأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ وأنزلت الكتب وبه افترق النَّاسُ إلى مؤمنين وكفار وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، وهو أَوَّلُ واجب على المكلف، وهو حقيقة دين الإسلام الَّذِي لا يقبلُ اللهُ من أحدٍ دينًا سواه، فأمره عظيمٌ للغاية، وكبيرٌ جدًّا وكلُّ واحدٍ مِنَّا مُحتَاجٌ إليه تذكُّرًا وتبصرةً، وفي هذه الرِّسالة «من معالم التَّوْحِيدِ»، شيءٌ من البيان لمنارات التَّوْحِيدِ ومعالمه، من خلال المسائل الآتية:

المسألة الأولى: خصائصُ التَّوْحِيدِ وفضائله.

المسألة الثانية: حدُّ التَّوْحِيدِ وحقيقته.

المسألة الثالثة: تحقيقُ التَّوْحِيدِ وتكميله.

المسألة الرابعة: نواقضُ التَّوْحِيدِ ونواقضه.

المسألة الخامسة: مصدرُ التَّوْحِيدِ ومنبعه.

المسألة السادسة: ثمارُ التَّوْحِيدِ وفوائده.

فهذه ستُّ مسائلٍ يدور حولها الحديث في هذه الرِّسالة بإيجازٍ واختصارٍ، وكلُّ مسألةٍ من هذه المسائل تحتاج إلى بسطٍ وسعةٍ في البيان، لكنني سأجتزئ فيها من الكلام ما يُحقِّقُ المقصودَ

بإذن الله - تبارك وتعالى -، ومنه وحده يُسْتَمَدُّ العونُ ويُسْتَمْنَحُ التَّوْفِيقُ:

المسألة الأولى:

خصائص التَّوْحِيدِ وفضائله

اعلم أنَّ التَّوْحِيدَ له خصائصُ كثيرةٌ وفضائلٌ عديدةٌ تدلُّ على مكانته العُلَيا، ومنزلته الرَّفِيعَةِ، وسأشير هنا إلى عشرٍ منها:

الأولى: أنَّه الغايةُ الَّتِي خُلِقْنَا لأجلِها وأوجدنا لتحقيقها؛ كما يدلُّ لذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56﴾ [سورة الذاريات] ومعنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي لِيُوجِدُونِ، فالتَّوْحِيدُ هو الغايةُ الَّتِي خُلِقْنَا لأجلِها في هذه الحياة، والله سبحانه وتعالى لم يخلُقنا عبداً ولم يتركنا - أيضاً - سُدًى وهملاً، بل خَلَقَ الخَلْقَ ليعبدوه، وأوجدهم - تبارك وتعالى - ليوحدوه، وكفى بهذا دلالةً على عِظَمِ شأنِ التَّوْحِيدِ وعُلُوِّ شأنه.

الأمر الثاني: أنَّ التَّوْحِيدَ هو مِحْوَرُ دعوة الأنبياء والمرسلين، بمعنى: أنَّ كُلَّ نَبِيٍّ بعثه الله عز وجل فإنَّ دعوته تركز على التَّوْحِيدِ وتقومُ عليه، وهذا أدلُّه كثيرةٌ؛ منها: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وقول الله جل جلاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ 25﴾ [سورة الأنبياء]، وقال الله عز وجل: ﴿وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلُنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ 45﴾ [سورة الزخرف]، وقال جل جلاله: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾

[الأحقاف: 21] والنُّذْرُ: الرُّسل؛ أي: أَنَّ الرُّسُلَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ مُتَّفِقُونَ عَلَى هَذِهِ الْعَايَةِ ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، فَالتَّوْحِيدُ مُرْتَكِزُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ أَوَّلَ كَلِمَةٍ يَسْمَعُهَا الْأَقْوَامُ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَوَّلَ مَا يَبْدُوْنَهُمْ بِهِ فِي بَابِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: الدَّعْوَةُ إِلَى تَوْحِيدِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ الدِّينُ؛ فَإِنَّ مَثَلَ الدِّينِ مَثَلُ شَجَرَةٍ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَهَا أَصْلٌ وَلَهَا فَرْعٌ، وَلَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُ شَجَرَةٍ إِلَّا بِأَصْلِهَا، وَلَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُ الدِّينِ إِلَّا بِأَسَاسِهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ 24﴾ [سورة إبراهيم]، وَكَمَا أَنَّ الشَّجَرَةَ إِذَا قُطِعَ أَصْلُهَا مَاتَتْ، فَكَذَلِكَ الدِّينُ إِذَا لَمْ يَقُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ لَمْ يُنْتَفَعْ بِهِ، فَمَنْزِلَةُ التَّوْحِيدِ مِنَ الدِّينِ مَنْزِلَةُ الْأَصُولِ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْقَوَاعِدِ مِنَ الْبُنْيَانِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ مَحَوْرُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَمُرْتَكِزُ رِسَالَتِهِمْ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عِلَاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَبَنِيَّهُمْ وَاحِدٌ»¹ أي عَقِيدَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، كُلُّهُمْ دَعَاةٌ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى أَيِ شَرَائِعُهُمْ مُخْتَلَفَةٌ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].

الأمر الثالث: من خصائص التَّوْحِيدِ أَنَّهُ أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْفُكْفَاءِ؛ فَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ لِلدُّخُولِ فِي هَذَا الدِّينِ هُوَ التَّوْحِيدُ، وَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ التَّوْحِيدُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالٌ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا

¹ () أخرجه مسلم (2365) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» الحديث (1)، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» الحديث (2)، وفي رواية بلفظ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى» (3)، وفي رواية بلفظ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلُ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» (4)، فالتوحيد هو أَوَّلُ ما يجبُ على المُكَلِّفِينَ وبه يُبَدَّوْنَ، وهو أَوَّلُ ما يدخلُ الإنسان به في هذا الدِّين، فالدين قائمٌ على التَّوْحِيدِ وهو أساسه الَّذي عليه يُبْنَى.

الأمر الرَّابِع: من خصائص التَّوْحِيدِ أَنَّهُ سبَبُ الأَمْنِ والاهْتِدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، واقرأ هذا في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ 82﴾ [سورة الأنعام]، فالأمن بيد الله، ولا يعطيه سبحانه وتعالى إِلَّا لِلْمُوحِّدِ الَّذِي يُخْلِصُ الدِّينَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - شَقَّ أَمْرُهَا عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ؟» يَعْنِي مَا مَنَّا إِلَّا وَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ

1 () أخرجه البخاري (25، 1399)، ومسلم (21، 22) من حديث أبي هريرة وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم.

2 () أخرجه البخاري (1458)، ومسلم (19).

3 () أخرجه البخاري (7372).

4 () أخرجه البخاري (1496).

أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿82﴾، فمعنى ذلك لا حظَ لنا من الأمن والاهتداء؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منا قد ظلم نفسه، فقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ ذَاكَ - يعني ليس هذا هو معنى الظلم في الآية -؛ أَمَا قَرَأْتُمْ قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ - يعني لقمان الحكيم - ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ 13﴾ [سورة لقمان]»، ففسَّر - عليه الصَّلَاة والسلام - الظلم في هذه الآية بالشِّرك؛ فأفاد هذا السِّياق أنَّ مَنْ آمَن ولم يُشرك؛ له الأمن والاهتداء في الدُّنيا والآخرة، فهذه من خصائص التَّوحيد: مَنْ كان مُوجِّدًا منحه الله سبحانه وتعالى الأمن والاهتداء في الدُّنيا والآخرة.

الأمر الخامس: من خصائص التَّوحيد أنَّ التَّوحيد فيه السَّلَامَةُ من الاضطراب والتَّنَاقُض، بخلاف العقائد الأخرى، فهي مُضْطَرِبَةٌ ومُتَنَاقِضَةٌ، يدلُّ لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا 82﴾ [سورة النساء]، فالعقائد الَّتِي يَخْتَرعها النَّاسُ ويُحَدِّثونها، فيها من الاضطراب والتَّنَاقُض الشَّيْء الكثير، أَمَا الإِيْمَانُ الصَّحِيح والاعتقاد السَّلِيم والتَّوحيد الرَّاسخ المُسْتَمَدُّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم فهو سَالِمٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

سادسًا: من خصائص التَّوحيد أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلْفِطَرِ السَّلِيمَةِ والعقول المستقيمة؛ فَالتَّوحيد هو دِينُ الفِطْرَةِ، ولو تُرِكَ الإنسانُ وفطرته لما قَبِلَ غيرَ التَّوحيد؛ لِأَنَّهُ يَتَوَافَقُ مع الفِطْرَةِ، بل هو الفِطْرَةُ كما قَالَ اللهُ سبحانه وتعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ 30﴾ [سورة الروم]، أَمَا الشِّرْكَ فهو خُرُوجٌ عَنِ الفِطْرَةِ وانحرافٌ عنها، ولهذا جاء في «صحيح

مسلم» حديثٌ قدسيٌّ، قال الله تعالى فيه: «وإني خلقت عبادي حنفاءً كلَّهم، وإنَّهم اتَّهَمُوا الشَّيَاطِينَ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» (١)؛ خلقت عبادي حنفاء: أي على الفطرة التي هي التَّوحيد، فاتَّهَمُوا الشَّيَاطِينَ فَاجْتَالَتْهُمْ أي حَرَفَتْهُمْ عن دينهم.

وجاء في «الصَّحيح» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تَنْتَجُونَ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟» (٢)، وفي رواية: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْجِ الْبَهِيمَةَ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ؟» (٣)، فالبهيمة تخرج من بطن أمِّها جمعاءً مُكْتَمَلَةً الْأَذْنَيْنِ وَالْأَطْرَافِ، فإذا انقطعت منها رجلٌ أو يدٌ أو أذنٌ أو نحو ذلك فليس هذا من أصل خلقتها وإنَّما هذا بفعل النَّاسِ بعدما خرجت تامَّةً كاملةً، قال صلى الله عليه وسلم: «حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا» فكَذَلِكَ الْمَوْلُودُ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فإذا تنصَّرَ أو تهوَّدَ أو تمجَّس أو وقع في أيِّ نوع من أنواع الانحراف والزَّيغ والضَّلَالِ والباطل فهذا بفعل الأبوين أو المحيط الذي ينشأ فيه. وينشأ ناشئُ الفتيانِ منَّا *** على ما كانَ عودُه أبوه

قال صلى الله عليه وسلم: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ولم يقل: «أَوْ يُسَلِّمَانِهِ» لَأَنَّهُ نَشَأَ وَوُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ،

١ () أخرجه مسلم (2865) من حديث عياض بن حمار المُجاشعي رضي الله عنه.

٢ () أخرجه البخاري (6599).

٣ () أخرجه البخاري (1358)، ومسلم (2658).

فالتوحيد هو دين الفطرة، وأمّا الشّرك وغيره من الضلال والباطل كلّ ذلك مصادمٌ للفطرة مُباينٌ لها، وأمّا موافقته للعقول المستقيمة، فإنّ العقلَ المستقيمَ الذي لم يَزْغ ولم ينحرف لا يَرْضَى بغير التوحيد ولا يَقْبَلُ إِلَّا التوحيد، فَمَنْ هَذَا الَّذِي عنده عقلٌ سليمٌ ويرضى بتعدّد الآلهة! أو التعلّق بقبابٍ أو ترابٍ ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ 39 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [سورة يوسف].

قال مُوَجِّدُ الجاهليّة زيدُ بنُ عمرو بن نُفَيْل حين فارق دينَ قومه (1):

أربأً واحداً أم ألف ربٍّ *** أدين إذا تقسّمت الأمورُ
عزلتُ اللَّاتَ والعزى جميعاً *** كذلك يفعلُ الجَدُّ الصَّبُورُ
فلا عزى أدينُ ولا ابنتيّها *** ولا صنمى بني عمرو أديرُ
«وكان يعيبُ على قريش ذبائِحهم ويقول: الشاةُ خلقها الله وأنزلَ لها من السَّماءِ الماءَ وأنبتَ لها من الأرض ثمّ تذبحونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك وإعظاماً له» (2).

فليس في العقول أبينُ ولا أجلي من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص وإفراده وحده بالدّلل والخضوع، وجاءت الرُّسل بالتذكّرة بهذه المعرفة وتفصيلها، فحسنُ التوحيد وقبحُ الشّرك مُستقرٌّ في العقول والفطر، معلومٌ لمن كان له قلبٌ حيٌّ وعقلٌ سليمٌ وفطرةٌ صحيحةٌ.

1 («السيرة» لابن إسحاق (96/2).

2 («صحيح البخاري» (3826).

الأمر السَّابع: من خصائص التَّوحيد أنَّ التَّوحيد هو الرَّابطة الحقيقيَّة الباقية المُستمرَّة في الدُّنيا والآخرة، ولا يوجد رابطة بين النَّاس إطلاقاً مثل رابطة التَّوحيد؛ لأنَّ هذه الرَّابطة التي بين أهل التَّوحيد والإيمان رابطة باقيةً مُستمرَّة دائمةً في الدُّنيا والآخرة ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ 67﴾ [سورة الزخرف]، وقال في آية أخرى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ 166﴾ [سورة البقرة] أي العلائق والصِّلات؛ فكلُّ صلة مُنقطعة، وكلُّ حبٍّ ذاهبٍ، وكلُّ تواصلٍ زائلٌ إِلَّا الحبَّ والصِّلَّة والتَّواصل في التَّوحيد والإيمان بالله عز وجل، فما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل، فمهما كانت الرَّابطة قويَّة ومهما كانت الصِّلَّة عميقة ستنتهي إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرة - قطعاً - إِلَّا الصِّلَّة التي تكون على توحيد الله سبحانه وتعالى وحسن الإيمان به، فهذه صلة دائمة مُستمرَّة باقيةً في الدُّنيا والآخرة.

الأمر الثَّامن: من خصائص التَّوحيد سلامة مصدره، فهو مأخوذٌ من معين عذب وموردٍ زلالٍ، مُستمدٌّ من كتاب الله ذي الجلال، ومن سنة رسولِهِ - صلوات الله وسلامه عليه - الَّذي لا ينطق عن الهوى إنَّ هُوَ إِلَّا وَحيٌ يوحى، وهذا جانبٌ سيأتي تفصيلُهُ.

الأمر الثَّاسع: من خصائص التَّوحيد الثَّبات والحفظ، والله - تبارك وتعالى - تكفل بحفظ هذا التَّوحيد وحفظ هذا الدِّين وبقائه، قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ 33﴾ [سورة التوبة]، وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: 38]،

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ 47﴾
[سورة الروم]، وقال عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ
الَّذِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27].
الأمر العاشر: من خصائص التوحيد اشتماله على ثمار
كثيرة وفصائل عديدة وآثار متنوعة في الدنيا والآخرة، سيأتي
الحديث عن شيء منها في تمام هذا الموضوع وختامه.

المسألة الثانية:

حدُّ التَّوْحِيدِ وَحَقِيقَتُهُ

التَّوْحِيدُ: مصدرٌ للفعل وَحَّدَ يُوَحِّدُ تَوْحِيدًا، وهو أصلٌ يدلُّ على الإفراد، وتوحيدُ الله إفراده سبحانه وتعالى ونفي الشَّريك عنه في حقوقه جل جلاله وخصائصه، فلا شريك له في شيءٍ من خصائصه، ولا في شيءٍ من حقوقه سبحانه وتعالى على عبادِهِ.

فالرُّبُوبِيَّةُ - وهي التَّصَرُّفُ في هذا الكَوْنِ خلقًا ورزقًا وإحياءً وإماتةً وتدبيرًا - هذا من خصائص الله عز وجل. وأسماءُ الحُسْنَى وصفاته العُلْيَا ومشيبُته النَّافِذَةُ وقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ وعِلْمُهُ الواسِعُ وكَمَالُهُ جل جلاله في أسمائه وصفاته هذا من خصائص الله عز وجل، فَمَنْ جعل لأحدٍ من المخلوقات شيئًا من خصائص الله نقضَ بذلك توحيدَهُ.

وحقوق الله سبحانه وتعالى على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا كما في حديث مُعَاذٍ رضي الله عنه، قال له النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُعَاذُ؛ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»¹ فالعبادةُ حقٌّ لله سبحانه وتعالى؛ فَمَنْ صرف شيئًا من العبادة لغير الله نقضَ بذلك توحيدَهُ.

1 () أخرجه البخاري (2856، 5967)، ومسلم (30).

فالتَّوْحِيدُ: هو إفرادُ الله جل جلاله بحقوقه وخصائصه،
والشِّرك: هو تسوية غير الله بالله عز وجل في شيءٍ من حقوقه
أو خصائصه، فهذه حقيقة التَّوْحِيد: أن نُفَرِّدَ الله سبحانه وتعالى
وأن لا نجعل معه شريكاً كما قال عز وجل: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: 36]، وقال جل جلاله: ﴿وَاقْضِ
رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، وقال سبحانه وتعالى:
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5]، والآيات
في هذا المعنى كثيرة.

وبهذا يتبين أن التَّوْحِيدَ أقسامٌ ثلاثة: توحيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وتوحيدُ
الأسماء والصِّفات، وتوحيدُ الألوهية.

أمَّا توحيد الرُّبُوبِيَّةِ: فهو إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالاِعتقاد
بأنه وحده الخالقُ الرَّازِقُ المالكُ المُنْعِمُ المُتَصَرِّفُ الَّذِي لا
شريكَ له في شيءٍ من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: 16]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 84 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
85 قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ 86
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ 87 قُلْ مَنْ بِيَدِ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 88 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [سورة المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة غافر]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الزمر] وغيرها من
الآيات.

والقسم الثاني: توحيد الأسماء والصِّفات: وهو إفراده
سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنَى وصفاته العُلا الواردة في كتابه

وسنة نبيه ح، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (8) [سورة طه]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110]، قال - جلّ وعلا -: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عُلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ 22 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ 23 هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 24﴾ [سورة الحشر].

والقسم الثالث: توحيد الألوهية وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة كالدعاء، والرجاء، والخوف، والنذر، والذبح، والصلاة، والصيام إلى غير ذلك من العبادات، وإخلاص الدين له والبراءة من الشرك كما قال الله جل جلاله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [سورة الأنعام]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاً دَخَلَ النَّارَ»¹ هذا هو التوحيد وهذه حقيقته.

ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ضدٌّ؛ «فإذا عرفت أن توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق، الرزاق، المحيي، المميت، المدبّر لجميع الأمور، المتصرّف في كلّ

¹ () أخرجه البخاري (4497) واللفظ له، ومسلم (92) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مخلوقاته، لا شريك له في ملكه؛ فُضِدُ ذلك هو اعتقاد العبد وجودَ متصرفٍ مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل. وإذا عرفتَ أنَّ توحيد الأسماء والصِّفات هو أن يُدعى اللهُ بما سَمِيَ به نفسه، ويُوصف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله محمدٌ ح، ويُنفى عنه التَّشبيه والتَّمثيل؛ فُضِدُ ذلك شيئان، ويَعْمُهُما اسم الإلحاد:

أحدهما: نفى ذلك عن الله عز وجل، وتعطيله عن صفات كماله، ونعوت جلاله الثَّابتة بالكتاب والسنة.

وثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وقد قال تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** [سورة الشورى]، وقال تعالى: **(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِلْمًا)** [طه: 110].

وإذا عرفتَ أنَّ توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ونفى العبادة عن كلِّ ما سوى الله - تبارك وتعالى -؛ فُضِدُ ذلك هو صرف شيءٍ من أنواع العبادة لغير الله عز وجل، وهذا هو الغالب على عامة المشركين، وفيه الخصومة بين جميع الرُّسل وأممها»¹ (1).

¹ () «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي (418/1).

المسألة الثالثة:

تحقيق التوحيد وتكميله

وتحقيق التوحيد درجةً عليا ومنزلةً مُنيعةً ورتبةً شريفةً، ذكر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَهَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِذُنُونِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» ثُمَّ ذَكَرَهُمْ بِقَوْلِهِ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْفُقُونَ، وَلَا يَسْتَرْفُقُونَ، وَلَا يَنْتَطِيرُونَ، وَلَا يَكْتُتُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»¹ فهذه درجةٌ عاليةٌ في التوحيد وهي تحقيق التوحيد وتكميله.

وتحقيق التوحيد المراد به: تتميمُ التوحيد وتكميله وتصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، وهذه الأمور الثلاثة يُسمِّيها أَهْلُ الْعِلْمِ: العوائق التي تعوق السائر في سبيله إلى الله والدار الآخرة: عائقُ الشِّركِ وعائقُ البدعة وعائقُ المعصية.

أَمَّا عَائِقُ الشِّركِ؛ فالخلاص منه بإخلاص التوحيد لله، وأَمَّا عَائِقُ الْبِدْعَةِ؛ فالخلاصُ منه بلزوم السُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالسَّيْرَ عَلَى مَنَاجِئِهِ، وَأَمَّا عَائِقُ الْمَعْصِيَةِ؛ فبالْبُعْدِ عَنْهَا وَالْحَذَرِ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا وَالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ فَإِنَّهُ بَلَغَ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ.

¹ () أخرجه البخاري (5705)، ومسلم (220).

وتحقيقُ التَّوْحِيدِ - أَيْضًا - عَلَى رُتَبَتَيْنِ، تَحْقِيقٌ وَاجِبٌ وَتَحْقِيقٌ مُسْتَحَبٌّ، وَكُلُّ أَهْلِ الرُّتَبَتَيْنِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِدُونِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ:

الرُّتَبَةُ الْأُولَى مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: هِيَ رُتَبَةُ الْمُقْتَصِدِينَ، وَالْمُقْتَصِدُ: هُوَ مَنْ فَعَلَ الْوَاجِبَ وَتَرَكَ الْمُحَرَّمَ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ هَذِهِ حَالَهُ مُحَافِظًا عَلَى الْوَاجِبَاتِ وَالْفَرَائِضِ مُجَانِبًا لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْكَبَائِرِ وَالْآثَامِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ التَّحْقِيقَ الْوَاجِبَ وَكَانَ مِنَ الْمُقْتَصِدِينَ، وَهُمْ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِدُونِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَهَذِهِ رُتَبَةُ:

وَالرُّتَبَةُ الثَّانِيَةُ أَعْلَى مِنْ هَذِهِ الرُّتَبَةِ وَهِيَ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ التَّحْقِيقَ الْمُسْتَحَبَّ وَهِيَ مَرْتَبَةُ السَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ، وَهُمْ الَّذِينَ مَعَ حِفْظِهِمْ وَعِنَايَتِهِمْ بِالْوَاجِبَاتِ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْكَبَائِرِ وَالْمُحَرَّمَاتِ نَافَسُوا فِي الرِّغَائِبِ وَالنَّوَافِلِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ.

فَهُؤُلَاءِ الْمُحَقِّقُونَ لِلتَّوْحِيدِ بِقِسْمِيهِمْ - الْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ - كُلُّهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِدُونِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ 32 جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [سورة فاطر 32] أَي: يَدْخُلُ جَنَّاتِ عَدْنٍ الثَّلَاثَةُ: الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ، وَالْمُقْتَصِدُ، وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ.

أَمَّا الْمُقْتَصِدُ وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ؛ فَإِنَّ دَخُولَهُمَا إِلَى الْجَنَّةِ دَخُولًا أَوَّلِيًّا بِدُونِ حِسَابٍ.

وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ بِالذُّنُوبِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، لَكِنْ لَا يَدْخُلُهَا دَخُولًا أَوَّلِيًّا بِدُونِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ

كالمقتصد والسَّابِق بالخيرات؛ بل يكون عُرْضَةً للعذاب
والحساب، وهو تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عَذَّبَهُ وإن
شاء غفر له.

المسألة الرابعة:

نواقض التَّوْحِيد ونواقضه

التَّوْحِيد له نواقض وله نواقض؛ ونواقض التَّوْحِيد هي الَّتِي تُحْبِطُ الْعَمَلَ وَتَبْطُلُ الدِّينَ كُلَّهُ، وهي الْكُفْرُ بِاللَّهِ وَالشِّرْكُ وَالنِّفَاقُ الْخَالِصُ، الْكُفْرُ بِأَنْوَاعِهِ وَالشِّرْكُ بِأَنْوَاعِهِ وَالنِّفَاقُ الْأَكْبَرُ بِأَنْوَاعِهِ هَذِهِ كُلُّهَا نَوَاقِضُ لِلتَّوْحِيدِ تَنْقُضُ التَّوْحِيدَ مِنْ أَصْلِهِ وَتَهْدِمُهُ مِنْ أُسَاسِهِ، فَالشِّرْكُ الْأَكْبَرُ بِأَنْوَاعِهِ، وَالْكَفْرُ الْأَكْبَرُ بِأَنْوَاعِهِ، وَالنِّفَاقُ الْأَكْبَرُ بِأَنْوَاعِهِ كُلُّهَا نَاقِضَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَهَادِمَةٌ لَهُ مِنَ الْأَسَاسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: 5]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَنَّ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الزمر]، فَالتَّوْحِيدُ يَنْقُضُ وَيَنْهَدِمُ وَيَبْطُلُ بِالشِّرْكِ الْأَكْبَرِ بِأَنْوَاعِهِ، وَالنِّفَاقِ الْأَكْبَرِ بِأَنْوَاعِهِ، وَالْكَفْرِ الْأَكْبَرِ بِأَنْوَاعِهِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ يَطُولُ الْحَدِيثُ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا وَذَكَرَ تَفَاصِيلَهَا.

وَأَمَّا نَوَاقِضُ التَّوْحِيدِ فَهِيَ الْأُمُورُ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَلَا تُبْطِلُهُ وَلَا تَهْدِمُهُ مِنَ الْأَسَاسِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ الْكُفْرُ الْأَصْغَرُ، وَالنِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ، مِثْلُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» (1)؛ هَذِهِ نَوَاقِضُ التَّوْحِيدِ إِذَا وُجِدَتْ فِي الْعَبْدِ نَقَصَ تَوْحِيدُهُ وَنَقَصَ إِيْمَانُهُ، وَكَذَلِكَ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ وَالْأَلْفَاظُ الشِّرْكِيَّةُ الَّتِي لَا يَقْصِدُ الْإِنْسَانُ

1 () أخرجه البخاري (33)، ومسلم (58) من حديث أبي هريرة .

حقيقتها وإنما تقع على لسانه، هذه تُنقص توحيدَه، أمّا إذا اعتقد حقيقتها كانت من الشِّرك الأكبر الناقض للتوحيد.

ولهذا ينبغي على المؤمن أن يكونَ على رعايةٍ لتوحيدِه وعنايةٍ به بإبعاده عن كلّ ناقضٍ وناقصٍ.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن :: «واعلم أنَّ ضِدَّ التَّوْحِيدِ الشِّرْكُ؛ وهو ثلاثة أنواع: شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي.

والدَّليل على الشِّرْك الأكبر، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا 116﴾ [سورة النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ 72﴾ [سورة المائدة].

وهو أربعة أنواع:

النوع الأوَّل: شرك الدَّعوة، والدَّليل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ 65 لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ 66﴾ [سورة العنكبوت].

النوع الثَّاني: شرك النِّيَّة، وهي: الإرادة والقصد، والدَّليل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ 15 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ 16﴾ [سورة هود].

النوع الثالث: شرك الطاعة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 31 ﴾ [سورة التوبة] وتفسيرها الذي لا إشكال فيه، هو: طاعة العلماء والعباد في معصية الله سبحانه، لا دعاؤهم إياهم، كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم، لما سألته، فقال: لسنّا نعبدُهم، فذكر له أنّ عبادتَهم طاعتُهم في المعصية.

النوع الرابع: شرك المحبة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ 165 ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَرَجِينَ مِنَ النَّارِ 167 ﴾ [سورة البقرة].

والنوع الثاني: شرك أصغر، وهو الرياء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا 110 ﴾ [سورة الكهف].

والنوع الثالث: شرك خفي، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَاةِ السَّوْدَاءِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ»، وكفّارته قوله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ شَيْئًا وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِي لَا أَعْلَمُ». والكفر كُفْران:

كفر يخرج من الملة، وهو خمسة أنواع: النوع الأول: كفر التكذيب، والدليل عليه، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ 68 ﴾ [سورة العنكبوت].

النَّوع الثَّانِي: كَفَرُ الْاِسْتِكْبَارِ وَالْاِِبَاءِ مَعَ التَّصَدِيقِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ، قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْٓا اِلَّا اِبٰلِیْسَ اَبٰی وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ 34 ﴾ [سورة البقرة].

النَّوع الثَّلَاث: كَفَرُ الشَّكِّ، وَهُوَ كَفَرُ الظَّنِّ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالٰی: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهٖ قَالَ مَا اَظُنُّ اَنْ تَبِيْدَ هٰذِهِ اَبَدًا 35 وَمَا اَظُنُّ اِلَّا سَاعَةً قٰٓئِمَةً وَلَیْنِ رُّدِدْتُ اِلٰی رَبِّیْ لَاجِدَنَّ خَیْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا 36 قَالَ لَهُ صٰحِبُهَا وَهُوَ يُحَاوِرُهُ اَكَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّیْكَ رَجُلًا 37 ﴾ [سورة الكهف].

النَّوع الرَّابِع: كَفَرُ الْاِعْرَاضِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالٰی: ﴿وَالَّذِیْنَ كَفَرُوْٓا عَمَّاۤ اُنْزِلُوْٓا مُعْرِضُوْنَ 3 ﴾ [سورة الاحقاف].

النَّوع الْخَامِس: كَفَرُ النِّفَاقِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالٰی: ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ ءَامَنُوْٓا ثُمَّ كَفَرُوْٓا فَطُبِعَ عَلٰی قُلُوْبِهِمْ فَهُمْ لَا یَفْقَهُوْنَ 3 ﴾ [سورة المنافقون].

وَكَفَرٌ اَصْغَرٌ لَا یُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَهُوَ: كَفَرُ النِّعْمَةِ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالٰی: ﴿وَضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا قَرْیَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً بِاٰتِیَّهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِاَنْعَمِ اللّٰهِ فَاَذَقَهَا اللّٰهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوْٓا یَصْنَعُوْنَ﴾ [النحل: 112]، وَقَوْلُهُ: ﴿اِنَّ الْاِنْسَانَ لَظَلُوْمٌ كَفَّارٌ 34 ﴾ [سورة ابراهيم].

وَأَمَّا النِّفَاقُ: فَهُوَ نَوْعَانِ: نِفَاقٌ اِعْتِقَادِيٌّ، وَنِفَاقٌ عَمَلِيٌّ.

فَأَمَّا الْاِعْتِقَادِيّ:

فَهُوَ سِتَّةُ اَنْوَاعٍ:

تَكْذِیْبُ الرِّسُولِ، أَوْ تَكْذِیْبُ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ الرِّسُولُ، أَوْ بَغْضُ الرِّسُولِ، أَوْ بَغْضُ مَا جَاءَ بِهِ الرِّسُولُ، أَوْ الْمَسْرَّةُ بِانْخِفَاضِ دِیْنِ الرِّسُولِ، أَوْ الْكَرَاهِیَةُ لِانْتِصَارِ دِیْنِ الرِّسُولِ؛

فهذه الأنواع السِّتَّة، صاحبُها من أهل الدَّرَك الأسفل من النَّار،
نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ.
وَأَمَّا النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ:
فهو خمسةُ أنواع:
إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا
انْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ؛ وَاللَّهُ - أَعْلَمُ¹ ()

¹ () «الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ» (66/3).

المسألة الخامسة:

مصدر التوحيد ومنبعه

التوحيد دينٌ صحيحٌ وإيمانٌ قويٌّ مُستمدٌ من كتاب الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام -، وهو الدين الوحيد الذي نزل به وحى من السماء، وكلُّ ما عند الناس من عقائد مُغايرةٍ للتوحيد ومُنافيةٍ له؛ فهي عقائدُ نابتةٌ في الأرض اخترعها الناس وأحدثوها وأوجدوها، فالتوحيد هو العقيدة الوحيدة التي نزلت من السماء بوحي الله، وهو دين الله الذي رضيهِ لعباده، قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [سورة آل عمران: 85]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]؛ فالتوحيد هو وحى من الله عز وجل مُنزلٌ على عباده، وهو دينُ الله الذي خَلَقَ الخلقَ لأجله وأوجدَهُم لتحقيقه، ولهذا مرَّ معنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: 36]، ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ 1 يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْزِلُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ 2﴾ [سورة النحل].

وأما ما سوى التوحيد من العقائد فهي عقائد نبتت في الأرض واخترعت وأوجدتها الناس، ولهذا كان من طريقة الأنبياء في إبطال العقائد التي بين الناس من شركٍ وكفرٍ ونفاقٍ وغير ذلك من أنواع الضلال بيانُ أنه لم ينزل به وحى، وقد مرَّ معنا قولُ يوسف ؛ لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ

اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ 39 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَعِبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿ [سورة يوسف]، وقال الله
عز وجل في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ 19 وَمَنُوءَ النَّالِئَةِ
الْأُخْرَىٰ 20 أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ 21 تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صَبْرٌ 22 إِنَّ
هِيَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿
[سورة النجم]، وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿اتَّجِدُونَنِي فِي
أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ 71 ﴾ [سورة هود].

فالتوحيد مصدره ومنبعه كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ح،
مأخوذ من هذا المورد العذب والمنهل الصافي؛ وأما العقائد
التي عند الناس فمصدرها؛ إما ما تُملِّيه عليهم عقولهم الفاسدة
وتوجِّبه أراؤهم الكاسدة، أو هي وحي من شياطينهم المارقة،
«والوحي وحيان: وحي من الرحمن وحي من الشيطان، قال
تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لْيُحْوَونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ 121 ﴾ [سورة الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: 112]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ
عَلَىٰ مَنْ نُنَزِّلُ الشَّيْطِينَ 221 ﴾ [سورة الشعراء]، وقد كان
المُختار بن أبي عبيد من هذا الضرب حتى قيل لابن عمر وابن
عبَّاس، قيل لأحدهما: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ؛ فقال: ﴿وَإِنَّ
الشَّيْطَانَ لْيُحْوَونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ﴾، وقيل للآخر: إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ؛ فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نُنَزِّلُ الشَّيْطِينَ 221
﴿1.0﴾

فالشَّيْطَانُ يُوحِي إِلَى أَهْلِ الضَّلَالِ بِعَقَائِدِ وَأَفْكَارٍ وَوَسَاوِسٍ وَخَطَرَاتٍ يُؤْمِنُونَ بِهَا ثُمَّ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا بِهَذَا الْوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَوْ أُمُورٍ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِذَوْقِهِ الْفَاسِدِ، ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ أَعْمَالٌ وَعِبَادَاتٌ وَطُقُوسٌ يَقُولُ فِي الْإِسْتِدْلَالِ لَهَا: جَرَّبْنَا أَوْ جَرَّبَ مَشَايخُنَا؛ وَالذِّينُ لَا يُؤْخَذُ بِالتَّجَارِبِ، أَوْ أَعْمَالٍ يَأْخُذُهَا مِنَ الْمَنَامَاتِ؛ يَقُولُ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَذَا وَكَذَا، وَيُبَيِّنِي عَلَيْهِ دِينًا أَوْ عَقِيدَةً، وَهَكَذَا دَوَّالِيكَ مِنَ الْمَصَادِرِ الَّتِي يَسْتَمُدُّ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَقَائِدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

إِذَا؛ فَالْعَقِيدَةُ الْمُبَارَكَةُ عَقِيدَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ دِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينًا سِوَاهُ عَقِيدَةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنْ مَوْرِدٍ عَذِبٍ وَمَنْهَلٍ صَافٍ، وَمَنْ نَهَلَ مِنَ الْمَوْرِدِ الْأَوَّلِ وَالْمَنْهَلِ الْعَذْبِ وَجَدَ بَقِيَّةَ الْمَنَابِعِ كَثِيرَةً وَمُلَوَّنَةً، لَكِنْ لَا يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ تَلَوُّنَ هَذِهِ الْمَصَادِرِ إِلَّا إِذَا عَرَفَ الْمَنْبَعَ الصَّافِيَ النَّقْيَ الَّذِي هُوَ وَحْيُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَنْزِيلُهُ، وَلِهَذَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هِدَايَتِهِمْ وَدُخُولِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا لَا يَعْقِلُونَ، بَيْنَمَا هُمْ فِي وَقْتِ ضَلَالِهِمْ وَشُرْكَهِمْ وَبَاطِلِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ وَالذِّينُ الْقَوِيمُ.

وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَاحِثَانِ يَجْلِسُونَ يَذْكُرُونَ مِنْ أَخْبَارِهِمُ الْغَرِيبَةِ عِنْدَمَا كَانُوا عَلَى الشِّرْكِ وَيَحْمَدُونَ اللَّهَ الَّذِي هَدَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ؛ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ التَّهْدِي - وَقَدْ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ وَأَسْلَمَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَرَهُ -، يَقُولُ: «كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَعْبُدُ حَجَرًا، فَسَمِعْنَا مَنَادِيًا يَنَادِي: يَا أَهْلَ الرِّحَالِ! إِنَّ رَبَّكُمْ قَدْ هَلَكَ فَالْتَمِسُوا رَبًّا - يَعْنِي الْحَجَرَ

الَّذِي مَعَهُم الَّذِي يَعْبُدُونَهُ ضَاعَ وَفُقِدَ ، قَالَ: فخرجنا على كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ نَطْلُبُ إِذَا نَحْنُ بِمَنَادٍ يَنَادِي: إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا رَبَّكُمْ أَوْ شَبَّهَهُ، قَالَ: فَجِئْنَا فَإِذَا حَجَرٌ فَنَحَرْنَا عَلَيْهِ الْجُرْزُ» () وَجَدُوا حَجَرًا آخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ الْحَجَرِ أَوْ مَقَارِبًا لَهُ، فَجَاءُوا بِهِ وَاتَّجَهُوا إِلَيْهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَرْجُونَهُ وَيَصْرِفُونَ لَهُ الدُّعَاءَ وَالرَّجَاءَ وَالذَّبَائِحَ، أَيْنَ عَقُولُ هَؤُلَاءِ؟¹

على أَنَّهُمْ فِي وَقْتِ هَذَا الْعَمَلِ وَهَذِهِ الْمَمَارَسَةِ يَصِفُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولَهُ بِالْجَنُونَ وَيَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْعُقَلَاءُ، لَكِنْ إِذَا أَنَارَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْبَصَائِرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَهَدَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُلُوبَ لِهَذَا الْإِسْلَامِ تَبَيَّنَ لِلْإِنْسَانِ فُسَادُ مَا عَلَيْهِ الْمَشْرُكُونَ وَأَنَّ تِلْكَ الْمَصَادِرَ الَّتِي اعْتَمَدُوهَا مُلَوِّثَةٌ مَشْهُوبَةٌ بِكُلِّ بَاطِلٍ وَضَلَالٍ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ مُشْرِكٍ فَاسِدُ الْعَقْلِ.

¹ () أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (33914)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (97/7)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (4707) وإسناده حسن.

المسألة السادسة:

ثمار التَّوْحِيد وفوائده

للتَّوْحِيد ثَمَارٌ لَا تُحْصَى وفوائدٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى، وانظر إشارة إلى ذلك في قوله جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ 24 تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [سورة إبراهيم] أي ثمارها وفوائدها.

ففوائد التَّوْحِيد وثماره على العبد في دنياه وأخراه لا حدَّ لها ولا حَصْر، بل نقول قولاً كلياً:

إِنَّ كُلَّ خَيْرٍ يَنَالُهُ الْعَبْدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُلَّ شَرٍّ يَنْجُو مِنْهُ الْعَبْدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هُوَ مِنْ ثَمَارِ التَّوْحِيدِ وَأَثَرٍ مِنْ أَثَارِهِ، وَإِذَا دَخَلْنَا فِي شَيْءٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ فِي ثَمَارِ التَّوْحِيدِ وَأَثَارِهِ؛ فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ ثَمَارِ التَّوْحِيدِ وَأَثَارِهِ أَنَّهُ يُصَحِّحُ الْأَعْمَالَ وَيُزَكِّيْهَا؛ إِذِ الْأَعْمَالُ أَيُّهَا كَانَتْ وَمَهْمَا كَانَتْ لَا تَصُحُّ مِنَ الْعَامِلِ وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ، فَهُوَ لِلأَعْمَالِ كَالْأَسَاسِ لِلْبُنْيَانِ وَكَالْأَصُولِ لِلْأَشْجَارِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا 19﴾ [سورة الإسراء]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ 97﴾ [سورة النحل]، فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الَّذِي يُصَحِّحُ الْأَعْمَالَ وَيُزَكِّيْهَا، وَلَوْ كَانَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ وَالْعَدَدُ الْوَفِيرُ؛ فَإِنَّهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ قَائِمَةً عَلَى التَّوْحِيدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 54]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: 5]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلَكَ لَنْ أَسْرَحْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿[الزمر: 65]﴾؛ فَالتَّوْحِيدُ يُصَحِّحُ
الأعمالَ، ولا تصحُّ إلا به.

والتَّوْحِيدُ سبَبُ الْفَلَاحِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى
هُدَى مِّن رَّبِّهِمْ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ 5﴾ [سورة البقرة]؛ فَأَهْلُ
التَّوْحِيدِ هُمُ أَهْلُ الْإِهْتِدَاءِ، وَأَهْلُ الْفَلَاحِ، وَالْفَلَاحُ هِيَ أَعْظَمُ كَلِمَةٍ
قِيلَتْ فِي حَيَاةِ الْخَيْرِ، فَالْمُفْلِحُ هُوَ مَنْ حَازَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
وَلَا يُحَازُ الْخَيْرُ وَلَا يُظْفَرُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ لِلَّهِ
وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَمِنْ ثَمَارِ التَّوْحِيدِ: أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْفَوْزِ بِكَرَامَةِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ
وَجَبَّتِهِ وَسَبَبٌ لِلنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُوَحِّدًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - مُشْرِكًا
دَخَلَ النَّارَ وَخُلِدَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَادِ، قَالَ اللَّهُ عِزِّ وَجَلِّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]،
فَالتَّوْحِيدُ مِنْ أَثَارِهِ وَثَمَارِهِ الْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ.

فَإِنْ كَانَ مُحَقِّقًا لِلتَّوْحِيدِ التَّحْقِيقَ الْوَاجِبَ أَوْ التَّحْقِيقَ
الْمُسْتَحَبَّ فَنَجَاتُهُ نَجَاةٌ مِنَ الدُّخُولِ، أَمَّا إِذَا كَانَ مُوَحِّدًا لَكِنَّهُ
ارْتَكَبَ مَعَاصِي وَأَثَامًا دُونَ الشِّرْكِ فَنَجَاتُهُ نَجَاةٌ مِنَ الْخُلُودِ؛ لِأَنَّهُ
لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ إِلَّا الْمُشْرِكُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَمَرَ
الْمَلَائِكَةُ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِّمَّنْ
أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»¹.
وَمِنْ ثَمَارِهِ أَنَّهُ أَعْظَمُ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ، وَعَلَى حَسَبِ
كَمَالِهِ وَقَوَّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انْشِرَاحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ.

1 () أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (7437)، وَمُسْلِمٌ (182) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: 22]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125]، فالهدي والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيقه.

ومن ثماره أَنَّ الله تكفل لأهله بالعز والنصر في الدنيا والتمكين في الأرض وصلاح الأحوال، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ 55﴾ [سورة النور].

ومنها: أَنَّ التوحيد يفتح للعبد باب الخير والسُرور واللذة والفرح والابتهاج والطمانينة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ 28﴾ [سورة الرعد]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ 123 وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى 124﴾ [سورة طه].

وبعد؛ فهذه معالم يسيرة حول هذا الموضوع العظيم، وأسأل الله عز وجل أن ينفعنا جميعاً بما علّمنا، وأن يجعله حجةً لنا لا علينا، وأن يهدينا سواء السبيل. والله أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.